إذن : فقوله الحق : ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، أى : لم يكونوا مسلمين. ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى : لم يلتزموا بأية قيم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ونعلم أن الحق قال فى آية سابقة :

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ[1] أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة]

والنص القرآنى إذا ما اتفق مع نص آخر ، نقول: إن الأداء الخاص ومقتضيات الأحوال تختلف ، ومن ينظر إلى خصوصيات ومقتضيات الأحوال يعلم أن هذا تأسيس وليس تكراراً ،فقد تحمل آيتان معنى عاماً واحداً، ولكن كل آية تمس خصوصية العطاء، ولنأخذ مثالاً من قوله الحق:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ... ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ...﴿٣١﴾﴾ [الإسراء]

وقد ادعى بعض المستشرقين أن فى القرآن تكراراً ، وهذا غير صحيح ؛لأنهم ينظرون إلى عموم الآية ولا ينظرون إلى خصوصية العطاء . وخصوصية العطاء فى الآية توافق مقتضى كل حال . ففى قوله

(١) زهقت نفسه : خرجت وماتت ، وزهق الباطل: زال وبطل فهو زاهق وزهوق: قال تعالى: «وتزهق أنفسهم »أى : تخرج ؛ فيموتون .

سبحانه عن رزق الأولاد لم يلتفتوا إلى صدرى الآيتين بل التفتوا إلى عجُز الآيتين ، وذلك من جهلهم بملكة الأداء فى البيان العربى .

ولنا أن نسأل هؤلاء المستشرقين الذين يثيرون مثل هذه الأقاويل : هل ترون أن آية من الآيتين أقل بلاغة من الأخرى ؟ ولن نجد إجابة عندهم ؛ لأنهم لا يعرفون دقة البيان العربى . ونقول لهم : أنتم إن نظرتم إلى عَجُز كل آية وصدرها لوجدتم أن آخر الآية يقتضى أولها ، وإلا لما استقام المعنى ، فالله سبحانه وتعالى لم يَقُلْ فى الآيتين : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ ﴾ وإنما قال: ﴿مِّنْ إِمْلاَقٍ ﴾ وقال: ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ ﴾ ، ولم يقل فى الآيتين : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ بل قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ و قال : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ .

إذن: فبداية الآيتين مختلفة ؛ الآية الأولى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ ﴾ . والإملاق هو الفقر ، فكأن الفقر موجود فعلاً . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ ﴾ ، فكأن الفقر غير موجود ، ولكن الإنسان قد يخشى أن يأتى الفقر بمجىء الأولاد .

إذن: فالآية الأولى تخاطب الفقراء فعلاً، والآية الثانية تخاطب غير الفقراء الذين يخشَوْنَ مجىء الفقر إن رُزقوا بأولاد ؛ والفقير - كما نعلم - يُشغل برزقه أولاً قبل أن يُشغَل برزق أولاده . ولذلك يطمئنه الحق سبحانه وتعالى على أن أولاده لن يأخذوا من رزقه شيئاً ، فيقول : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ أى : اطمئن أيها الفقير على رزقك فلن يأخذ أولادك منه شيئاً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يرزقك أولاً ويرزق أولادك أيضاً .

أما غير الفقير الذى يخشى أن يجىء الولد ومعه الفقر فقد ينشغل بأن المولود الجديد سيأتى ليُحوِّل غناه إلى فقر . ويخاطبه الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أى : أن رزقهم يأتى من عند الله قبل رزقكم أنتم ، فلا تخشوا الفقر وتقتلوا أولادكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى سيرزقهم ، فلن يصيبكم الفقر بسبب الأولاد . وهكذا نرى أن معنى الآيتين مختلف تماماً وليس هناك تكرار.

كذلك فى الآية التى نحن بصددها ، يقول بعض الناس : إن هذه الآية قد وردت فى نفس السورة، نقول لهم : نعم . ولكن هذه لها معنى والأخرى لها معنى آخر ؛ فأين الاختلاف فى الآيتين ؛ حتى نعرف أنهما ليستا مكررتين ؟ الآية الأولى تقول:

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

والآية الثانية التى نحن بصددها تقول:

﴿ وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) ﴾ [التوبة]

أول اختلاف نجده فى بداية الآيتين ؛ ففى الآية الأولى: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ ﴾، والثانية : ﴿ وَلا تُعْجِبْكَ ﴾.

ففى الآية الأولى جاء الحق سبحانه وتعالى بالفاء ، والفاء تقتضى الترتيب . إذن : فهذه الآية مترتبة على ما قبلها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) ﴾ [التوبة]

فكأن هذه حيثيات كفرهم ؛ فهم لا يُصلُّون إلا نفاقاً ، ولا ينفقون مالاً فى سبيل الله إلا وهم يكرهون ذلك.

والمتعة فى المال أن تنفقه فيما تحب ، فإذا أحببت طعاماً اشتريته ، وإذا أحببت ثوباً ابتعته [1]. وتكون فى هذه الحالة مسروراً وأنت تنفق مالك ، ولكن هولاء ينفقون المال وهم كارهون.

والمؤمن عندما ينفق ماله فى صدقة أو زكاة فهو يفعل ذلك إيماناً منه بأن الله سبحانه وتعالى سيعطيه أضعاف أضعاف الأجر فى الدنيا والآخرة. إذن: فحين ينفق المؤمن ماله فى الزكاة ، يكون فرحاً لأنه عمل لدنياه ولآخرته.

أما المنافق الذى يضمر الكفر فى قلبه ، فهو لا يؤمن بالآخرة ولا يعرف البركة فى الرزق ، فكأنه أنفق ماله دون أن يحصل على شىء ، أى: أن المسألة فى نظره خسارة فى المال ولا شىء غير ذلك . وإن أنفق الإنسان وهو كاره ، فالمال الموجود لديه هو ذلة وتعب ؛ لأنه حصل على المال بعد عمل ومشقة ، ثم ينفقه وهو لا يؤمن بآخرة ولا بجزاء.

ويريد الحق سبحانه أن يلفتنا إلى أن رزقه لهؤلاء الناس هو سبب فى شقائهم وإذلالهم فى الدنيا فيجعلهم يجمعون المال بعمل وتعب ثم ينفقونه بلا ثواب ، أى: يخسرونه . والواحد منهم يذهب إلى الحرب نفاقاً ، فينفق على سلاحه وراحلته [2] ، ولا يأخذ ثواباً ، ويُربِّى أولاده ثم تأتى الحرب ، فيذهبون نفاقاً للقتال ؛ فيموتون دون استشهاد إن كانوا منافقين مثل آبائهم. وهكذا نجد أن كل أموال المنافق الذى يتظاهر بالإسلام ، وهو كافر ، تكون حسرة عليه.

---

(١) ابتاع : اشترى .

(٢) الراحلة : كل بعير قادر على مشقات السفر أو الجهاد .

ومن هنا فإياك أيها المؤمن أن تعجبك أموالهم ؛ لأنها ذلة لهم فى الدنيا ؛ فهم يبذلونها نفاقاً ، فإذا امتنعوا عن الإنفاق وعن الجهاد وهم يتظاهرون بالإسلام ؛ فكأنهم قد أعلنوا أنهم منافقون ، وهكذا نجد إنفاقهم كرهاً هو إذلال لهم ، وإن لم ينفقوا فهذا أمر يفضحهم ، فكأن الأموال والأولاد عذاب لهم ، وهذا أمر لا يقتضى الإعجاب ، وإنما يقتضى الإشفاق عليهم.

ولا تظن أنك حين حذفتهم من ديوان الغُزاة والمجاهدين بعدم الخروج معك وأنهم لن يقاتلوا معك عدواً ، أن فى أموالهم عوضاً عن الخروج ، فلا تعجبك فإنها عقاب وفضيحة وإذلال لهم.

ولكن فى الآية الأولى ، يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ لماذا ؟ لأن منهم من له مال يعتز به ، ومنهم من له أولاد كثيرون هم عِزْوته، ومنهم من له المال والولد.

إذن: فهم مختلفون فى أحوالهم؛ لذلك جاء القول: ﴿ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ لتؤدى المعانى كلها . ولتشمل من عنده مال فقط ، ومن عنده أولاد فقط ، ومن عنده المال والولد.

أما فى الآية الثانية التى نحن بصددها:

﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

إذن : فالحقُّ سبحانه وتعالى قد أعطاهم المال والولد للعذاب . ولكن هناك من يقول : ما دام الحق يريد تعذيبهم بالأموال والأولاد ، فهل المال والأولاد علة للعذاب ؟ وهل لأفعال الله علّة ؟ ألا يقول المسلمون : إن أفعال الله لا علة لها ؛ ونقول : لقد قالوا مثل ذلك القول فى قوله الحق:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

ولم يلتفتوا إلى أن العلة فى الخلق لا تعود إلى الله ، ولكنها علة ترجع للمخلوق ؛ لأن فى العبادة مصلحة ومنفعة للمخلوق . فسبب الخلق هو العبادة ، وهذا السبب ليس راجعاً إلى الخالق ولا تعود على الله أدنى منفعة ، فلا شيء يزيد فى ملكه ولا شيء ينقصه . أو هى لام العاقبة . ومعنى « لام العاقبة » أن تفعل شيئاً فتأتى العاقبة بغير ما قصدت مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨) ﴾ [القصص]

هل التقط آل فرعون موسى ليكون لهم عدواً ؟ أم التقطوه ليكون لهم قرة عين[1] ؟ . لقد التقطوه ليكون قرة عَيْن لهم ، ولكن النهاية جاءت بغير ما قصدوا ؛ فأصبح الذى التقطوه ليكون وَلِيّاً ونصيراً لهم هو الذى جاءت على يديه نهايتهم ، ولو كان فرعون يعلم الغيب لما التقط موسى بل لَقتله ، وشاء الحق أن يخفى عنه الغيب ليقوم هو بتربية من سيقضى على مُلكه ، تماماً كما تُدخل ابنك إلى المدرسة فيفشل ، وتنفق عليه فلا يتخرج ، هل أنت أدخلته المدرسة ليخيب ؟ طبعاً لا .

كذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَهُم ﴾ ويريدنا الله أن نفهم أن العذاب ليس هو سبب جمعهم المال ، وإنما السبب فى ذلك هو حُبُّهم للمال والمتعة ، وكذلك الأولاد ليس الهدف منهم أن يكونوا سبباً فى عذاب آبائهم ، بل هم يريدون الأولاد عِزْوة لهم . ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يعذبهم بالمال والأبناء فى الدنيا . فالمال يجمعه المنافق من حلال ومن حرام ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقه المال بكارثة تصيبه ، وإما أن يفارق هو

(١) قرة عين : مصدر سرور وفرح وسعادة قلب .

المال بالموت ، وإما أن يكون هذا المال عذاباً له ؛ فيعيش مع خشية الفقر وزوال النعمة ، كذلك الأولاد يربيهم ويتعب فى تربيتهم ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقوه بالموت ، وإما أن يكبروا فاسدين ؛ فيكونوا مصدر عذاب لهم.

فكأن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ هو كلام من الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين ؛ لأن هؤلاء المنافقين قد يعطيهم الله الأموال والأولاد ؛ ولكنها ليست خيراً لهم، بل هى عذاب لهم ؛ لأنهم بإبطانهم الكفر وتظاهرهم بالإيمان ؛ يفرضون على أنفسهم تكاليف تأخذ جزءاً من أموالهم وأولادهم ، وحينئذ تكون عذاباً لهم لأنهم خسروا كل شىء ولم يكسبوا شيئاً ، فليس لهم أجر على موت أبنائهم إن قتلوا ، ولا أجر الزكاة والصدقة فيما ينفقونه رياء ونفاقاً.

أما الآية الثانية :

﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ فهى حكم عام على من يعطيهم الله نعمة الدنيا ويكفرون به ، وتكون هذه النعمة عليهم عذاباً ، فهم فى خوف من ضياع المال أو فقد الولد ؛ لذلك يعانون من العذاب . وهم من خوفهم من الموت وترك النعمة مُعذَّبون ، فهم لا يريدون أن يموتوا لأنهم لا يعتقدون فى الآخرة ، ويكون المال والولد حسرة عليهم ؛ لأن المؤمن إن مات منه ولد ، علم أن افتقاد الابن إنما يسد طاقة جهنم ، ويقوده إلى رحمة الله ، وله أجر على ذلك ، فإن كان الولد صغيراً كان ذخراً له فى الآخرة ، وإن كان كبيراً فهو يتذكر قول الحق:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ.. (٢١) ﴾ [الطور]

وفى هذا سلوى عن افتقاد الولد ، لكن المنافق يحيا فى خوف وحسرة . وفى هذا عذاب . ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن مال الكافر هو حسرة عليه دائماً فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) ﴾ [الأنفال]

أى أن الله سبحانه وتعالى يعاقب من ينفق لمحاربة دينه بأن يتركه ينفق ، ثم ينصر الله دينه ليجعل ذلك حسرة فى نفسه حين يرى المال الذى أنفقه وقد جاء بنتيجة عكسية هى انتصار الدين وانتشاره.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ وهذه هى الحسرة الكبرى ، فحين يموت الكافر ولايجد له رصيداً فى الآخرة إلا النار ؛ لأنه مات على غير يقين بالجنة وعلى غير يقين بأنه قد قدم شيئاً ، يُلْقَى فى النار محسوراً على ما تركه فى الدنيا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل نقرأ قول الله :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ... (٥٠) ﴾ [الأنفال]

وهكذا يذوقون العذاب.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين فى قوله :

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٨٦) ﴾

وهكذا شاء الحق أن يفضح المنافقين ، هؤلاء الذين استمرأوا الاستمتاع بنفس حقوق المؤمنين لمجرد إعلانهم الإسلام ، بينما تبطن قلوبهم الكفر والكيد للمسلمين . وقوله الحق : ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ هو خطاب للمنافقين يكشف بطلان إيمانهم ؛ ولذلك جاء قوله الحق : ﴿ أَنْ آمِنُوا ﴾ أى : اجعلوا قلوبكم صادقة مع ألسنتكم ، فالله يريد إيماناً بالقلب واللسان ، فيتفق السلوك مع العقيدة . وقوله الحق : ﴿ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ أى: انفروا للجهاد مع رسول الله ، فهذا هو التعبير العملى عن الإيمان ، ولاتفرحوا بتخلفكم عن القتال فى سبيل الله ؛ لأن الجهاد والقتال فى سبيل الله شرف كبير له ثواب عظيم. وامتناع إنسان عن الجهاد هو تنازل عن خير كبير ، فالحق سبحانه يعطى جزيل الأجر لمن جاهد جهاداً حقيقياً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ و«استأذن» من مادة استفعل ، وتأتى للطلب ، كأن تقول : « استفهم » أى: طلب أن يفهم ، و« استعلم » أى : طلب أن يعلم . إذن : فقوله :﴿ اسْتَأْذَنَكَ ﴾ أى: طلبوا الإذن ،ولأنهم يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر ،تجدهم ساعة النداء للجهاد لا يقفون مع المؤمنين ، وكان من المفروض أن يكونوا بين المجاهدين ، وأن يجدوا فى ذلك فرصة لإعلان توبتهم ؛ ورجوعهم إلى الحق فيكون جهادهم تكفيراً عما سبقه من نفاق ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل طلبوا الإذن بالقعود.

ومن الذى طلب الإذن ؟

إنهم أولو الطَّوْل . و« أولو» معناها أصحاب القوة والقدرة . و«الطَّوْل» هو أن تطول الشىء ، أى : تحاول أن تصل إليه ، فإذا لم تصل يدك إليه ؛ يقال: إن هذا الشىء يدك لم تَطُلْه ، أى : لم يكن فى متناول يدك.

و﴿أُوْلُوا الطَّوْلِ﴾ أى : الذين يملكون مقومات الجهاد من سلامة البدن من الأمراض ووجود القوة ، ولا يعانون من ضعف الشيخوخة ، وأن يكون الإنسان قد بلغ مبلغ الرجولة وليس صبياً صغيراً ؛ لأن الشيخ الكبير ضعيف لا يقدر على الجهاد ، وكذلك الصبى الصغير لا يملك جَلَداً على الحرب . وأيضاً نجد المريض الذى قد يعوقه مرضه عن الحركة .

أما أولو الطول فهم الذين يملكون كل مقومات الحرب ، من قوة بدنية وسلاح ، والذين لم يبلغوا سن الشيخوخة ، ولا هم صبيان صغار ولا مرضى .

إذن : فعندما تنزل آية فيها الجهاد ، فالذين يستأذنون ليسوا أصحاب أعذار- لأنهم معفون- لكن الاستئذان يأتى من المنافقين الذين تتوافر فيهم كل شروط القتال ، ويستأذنون فى القعود وعدم الخروج للقتال . ويقولون ما يخبرنا الحق به : ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ والقاعد مقابله القائم . والقيام - كما نعلم - هو مقدمة للحركة . فإذا أراد الإنسان أن يمشى ، قام من مكانه أولاً ، ثم بدأ المشى والحركة ، ومن القيام أخذتْ مادة (القوم) [1] أى : الجماعة القائمة على شئونها ، والقوم هم الرجال ، أما النساء فلا يدخلن فى القوم ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ... (١١) ﴾ [الحجرات]

(١) القوم : جماعة من الرجال ليس معهم نساء ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ؛ مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور فى اللسان (مادة قوم) : « ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع ؛ لأن قوم كل نبى رجال ونساء ، والقوم يذكر ويؤنث ؛ لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت للآدميين تذكر وتؤنث . قال تعالى : ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ (٦٦)﴾ [الأنعام] ، فذكر . وقال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ (١٠٥)﴾ [الشعراء] ، فأنث ».

إذن : فالقيام يقابله القعود ، والقوم يقابلهم النساء . والقعود هو مقدمة للسكون ، فمتى جلس الإنسان فهناك مقدمة لفترة من السكون ، وقعود المنافقين وتخلفهم واستئذانهم أن يبقوا مع النساء والعجزة والمرضى والصبية هو حَظٌّ من شأنهم .

ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى :

﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

و﴿الْخَوَالِفِ﴾ ليست جمع «خَالف» ولكنها جمع «خالفة» ؛ لأن «خَالف» لا تجمع على «فواعل» ، وإنما «خالفة» هى التى تُجمَعُ على «فواعل»[1] ، وهم قد ارتضوا لأنفسهم أن يطبق عليهم الحكم الذى يُطبق على النساء .

ولذلك كانوا ﴿ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ لأنهم ارتضوا لأنفسهم وصفاً لا يليق بالرجال وفرحوا بهذا الوصف دون أن يتنبهوا لما فيه من إهانة لهم ؛ لأنهم يهربون من القتال كما تهرب النساء . والمنافق - كما قلنا - له ملكتان : ملكة قولية ، وملكة قلبية . فقول المنافق إعلان بالإيمان ، أما قلبه فهو ممتلىء بالكفر ؛ وفى هذه الحالة تتضارب ملكاته .

والله سبحانه وتعالى يوضح لهم : سوف نعاملكم فى الدنيا بظاهر كلامكم ، ونعاملكم فى الآخرة بباطن قلوبكم ، وسوف نطبع على هذه

---

(١) لا يجمع " فاعل" صفة للمذكر العاقل على «فواعل» ، إلا فى أمثلة قليلة اعتبرها الأقدمون شاذة عن القاعدة مثل : (فارس ، فوارس) - (هالك ، هوالك) - (ناكس ، نواكس) وقد وصل بها المعاصرون إلى أكثر من ثلاثين مثالاً ، وإن كانوا قد قالوا : الأفضل الالتزام بالقاعدة ، وهى : « لا تجمع صيغة فاعل على فواعل إذا كانت وصفاً لمذكر عاقل » . انظر فى هذه المسألة النحو الوافى لعباس حسن (٤/ ٦٥٣ - ٦٥٥) ولابن منظور فى هذا كلام فى مادة (فرس) .

القلوب ؛ فلا يخرج منها كفر ، ولا يدخل إليها إيمان ، ولذلك قال الحق سبحانه هنا ﴿ وَطُبِعَ [1] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ خَتَمَ [2] اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... ⟨٧⟩ ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه :

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... ⟨٩٣⟩ ﴾ [التوبة]

وما دام الكافر قد أعجبه كفر قلبه ؛ فالحق سبحانه يختم على قلبه ، بحيث لا يخرج ما فيه من كفر ، ولا يدخل إلى قلبه ؛ ما هو خارجه من إيمان ، تماماً كما تختم الشيء بالشمع الأحمر ؛ فيظل ما في داخله كما هو ، وما في خارجه كما هو . ويطبع الله على قلبه ؛ فيمنع ما فيه من الكفر أن يخرج ، ويمنع ما في خارجه من الإيمان أن يدخل إليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ والفقه هو الفهم ، أي : لا يفهمون ما حُرِموا منه من ثواب ونعيم الآخرة ؛ لأنهم قد فرحوا بتخلفهم عن الجهاد ، وهم يحسبون أن هذا خير لهم ولكنه شر لهم .

ثم يريد الحق سبحانه أن يضع الطمأنينة في نفوس المؤمنين ، ويطلب منهم ألا يفزعوا ؛ لتخلف هؤلاء القادرين عن القتال رغم أنهم أصحاب الطَّوْل الذين يملكون الأموال والأولاد . ويزيل الحق أثر ذلك من نفوس المؤمنين ، فيقول سبحانه :

---

(١) الطبع لا يفك أبداً ، فالذي طبع على قلبه ليس له قبول لأنه غير قابل ولا مقبول .
(٢) الختم قد يفك ، وقد يكون له مدة معلومة وقد يقبل مع التوبة الخالصة .

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

أى : إياكم أن تحزنوا على هؤلاء المنافقين بسبب قعودهم عن الجهاد معكم ولا تقولوا : نحن خسرناهم فى قتالنا ؛ لأن الحق لا يحتاج إليهم ولا إلى جهادهم . وسبحانه القائل : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنعام]

ويقول سبحانه :

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد]

وأيضاً نجد قوله الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة]

إذن : فتخلف بعض أصحاب القوة والمال والجاه عن الجهاد ، يجب ألا يشيع الفزع أو الحزن فى نفوس المؤمنين ؛ لأن الله معهم ، ولأنهم لهم

الخيرات ، أى : لهم كل ما يطلق عليه خير [1] : ﴿وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون﴾ والمفلح : هو الفائز الناجى المستفيد بثمرة عمله، وأصلها فلح الأرض أى: شقها؛ لأن الزراعة تقتضى أن تحرث الأرض أولاً، وهذه مهمة الإنسان ليخرج الزرع. والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿أفرأيتم ما تحرثون (٦٣) أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٦٤)﴾ [الواقعة]

ونحن حين نحرث الأرض نهيجها ،وبدلاً من أن تكون صلبة لا يدخلها هواء ولا تتخللها أشعة الشمس ، تصير بعد الحرث مستقبلة للهواء وتتخللها أشعة الشمس ؛ فتخلصها من أى ماء راكد فى داخلها ، وبذلك يتوافر للأرض الهواء اللازم لنمو جذور النبات ؛ لأنك إذا وضعت الحَبّ فى أرض غير محروثة ، فالزرع لا ينبت ؛ لعدم وجود الهواء الذى تتنفس منه الجذور . ولكن إذا حرثت الأرض ؛ جعلت أشعة الشمس تتخلل ما هو تحت السطح ؛ وتبخر الماء المخزون ؛ ليدخل الهواء بدلاً منه ؛ فتستطيع جذور النبات أن تنمو . إذن : فكل عمل يؤدى إلى نتيجة طيبة نُسمِّيه فَلاحاً . وهو مأخوذ من الأمر الحسّى ، الذى نراه كل يوم وهو الفِلاحة.

وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا أمراً معنوياً ، فهو سبحانه يستحضر لنا صورة محسّة من الذى نراه أمامنا ؛ حتى نستطيع أن نُقرِّب المعنى إلى الأذهان ؛ خصوصاً فى الغيبيات التى لا نراها ، فإذا أراد سبحانه أن يُقرِّبها إلى أذهاننا؛ فهو يضرب لنا الأمثال بأمور حسيّة. والإنسان حين يفلح الأرض ويشقها ويبذر فيها الحب ، تعطيه محصولاً وفيراً . وكذلك فإن كل عمل يؤدى إلى نتيجة طيبة نسميه فلاحاً.

(١) الخيرات : جمع خير ، فالمعنى: لهم منافع الدارين . وإن كان قد قال الحسن : الخيرات : النساء الحسان . ودليله قوله عز وجل : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ [الرحمن : ٧٠] . انظر تفسير القرطبى (٤/٣١٤٩) .

وعندما يحدثنا الحق سبحانه ، فهو يعطينا المثل مما نراه كل يوم ؛ ليقرب إلى أذهاننا جزاء الصدقة والزكاة [1] ، ومضاعفته لنا الأجرَ ، فيقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ... (٢٦١) ﴾ [البقرة]

فإذا كانت الحبة عندما تضعها فى الأرض تنبت سبعمائة حبة ، وإذا كانت الأرض ، وهى مخلوقة لله ، قد أعطتك عن الشيء الواحد سبعمائة ضعف ، فكم يعطى خالق الأرض ؟ وكم يضاعف ؟

إنها صورة مُحَسَّة للجزاء على الصدقة والزكاة . وأنت ساعة تزرع الأرض لا تقول : أنا أنقصت المخزون عندى كيلة [2] من القمح أو إردباً [3] من القمح ؛ لأنك تعلم أنك تأخذ مما عندك إردباً من القمح ؛ لتزرعه فى الأرض . ولكنك لا تنظر إلى الإردب الذى أخذته من المخزون عندك ، بل انظر إلى ما سوف يجيء لك من هذا الإردب ساعة الحصاد ، وكذلك الزكاة : إياك أن تنظر إلى ما سينقص من مالك عندما تؤدى الزكاة ، ولكن انظر إلى كم سيضاعف الله لك هذا المال .

وقد ضرب الحق مثلاً بشيء مُحَسٍّ يعلمه الجميع ، ومن صورة ما نراه أمامنا لنفهم ما ينتظرنا ، فإذا كانت الأرض - وهى المصدر الأول للاقتيات [4] - تُلقى فيها الحبة الواحدة ، فتعطى لك سبع سنابل فى كل

---

(١) الصدقة : ما يخرج من المال على وجه القُربة إلى الله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ (٢٧١) ﴾ [البقرة]

وتصدَّق : أخرج الصدقة : ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ (٢٨٠) ﴾ [البقرة] بحذف إحدى التاءين واصَّدَّق : أخرج الصدقة . وصدَّقه : آمن بكلامه - والصَّدُقَة : صداق المرأة ومهرها لا تدل على صدق الرغبة . وفى مادة الصدقة : صدق مع الله وصداقة مع الناس وصداقة مع النفس . وأما الزكاة فهى ما فرض بمقدار ونصاب محدد .

(٢) الكَيْلَة : وعاء تكال به الحبوب ، ومقداره الآن ثمانية أقداح . والجمع : كَيْلات .

(٣) الإِرْدَبُّ : مكيال يسع أربعة وعشرين صاعاً ، أو ست وَيبات . والجمع : أرادِبُ .

(٤) الاقتيات : القوت والرزق .

سنبلة مائة حبة ، وإذا كانت الأرض المخلوقة لله تعوضك عما وضعته فيها بسبعمائة ضعف ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟

إذن : فهو سبحانه قادر أن يضاعف لمن يشاء بغير حساب. ولذلك يبشر الحق سبحانه وتعالى المؤمنين بقوله :

﴿ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وهذا جزاء المؤمنين فى الدنيا ، ولكن هناك جزاءاً آخر فى الآخرة . وفى هذا يُبشِّرنا الحق سبحانه فى قوله :

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

وقد عرفنا من قبل أخبار الجنات والأنهار ، وهنا يوضح لنا الحق الخير الذى يخلد فيه المؤمنون.

ولماذا سمى الله سبحانه وتعالى جزاء الآخرة بأنه : ﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

ذلك لأن هناك فارقاً بين الخير والفلاح فى الدنيا ، والفوز فى الآخرة ؛ فالدنيا موقوتة بعمرك وتتمتع فيها بقدر أسبابك . إذن : ففيها فوز محدود لا يسمى فوزاً عظيماً . أما الآخرة فالنعمة فيها لا تفارقك ، ولا تفارقها أنت ، فالنعمة خالدة ، وأنت خالد ، وهذه النعمة - فى الوقت نفسه - ليست بقدراتك أنت ، بل بقدرات خالقك سبحانه وتعالى ، ولا تحتاج منك أى تعب أو عمل أو اجتهاد ، بل يأتيك الشيء بمجرد أن يخطر على بالك ، وهذا لا يحدث إلا فى الآخرة وفى الجنة وهذا هو الفوز العظيم ؛ لأنه دائم وبلا نهاية.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

والحديث هنا عن المنافقين الذين كانوا يعيشون حول المدينة وكانوا يُسمَّون «الأعراب» ، وقد تحدثت الآيات السابقة عن منافقى المدينة الذين جاء فيهم قول الحق : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ[1] ... ﴿١٠١﴾ ﴾ [التوبة]

وهنا يأتى الحديث عن المنافقين الذين كانوا يسكنون فى البوادى التى حول المدينة وهم الأعراب .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ ، وهناك « مُعْذِرون » و «معتذرون» ، والمعذِّرون هم المعتذرون ؛ فالمعتذر جمعه معتذرون بفتحة فوق التاء ، لكن إذا وُضِعَتْ الفتحة فوق العين فالحرف الذى بعدها يُسكّن ، وعندما يُسكّن ما بعد العين ، فهذا يعنى أن هناك افتعالاً .

إذن : فالمعذّرون أو المعتذرون هم الذين يريدون أن يتخلفوا عن القتال بأعذار مفتعلة[2] ، وهم أرادوا القعود والسكون ولم يتحركوا للقتال ، وقد فعلوا ذلك دون عذر حقيقى . ويقال : « المعذرون» ، و« الْمعَذّر» ، و«أعذره» أى : أذهب عذره ، مثل : « أعجم الكتاب » أى : أذهب عُجْمته .

---

(١) النفاق : أن يظهر الإنسان بخلاف ما يبطن ، وأطلق " المنافق" فى صدر الإسلام على من أظهر الإسلام وأضمر الكفر ، والنفاق : مصدر نافق . ومردوا على النفاق : اعتادوا عليه وتمرسوا به ، وكأنه أصبح حرفة لهم .

(٢) المُعْذر : الذى يعتذر وله عذر حقيقى . المعتذر : مثله . المُعَذِّر : الذى يعتذر وليس له عذر ، بل يفتعله ويختلقه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لقد كذبوا الرسول فى الإيمان نفسه ؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم حتى مجرد الاعتذار وتخلفوا ، ولو كانوا قد صدقوا فى الإيمان لما تقاعسوا عن القتال ، أو لاستأذنوا رسول الله فى القعود .

ثم يقول الحق : ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والكفر - كما نعلم - هو ستر الإيمان . والمنافقون من الأعراب أظهروا الإيمان وكانت قلوبهم تمتلىء بالكفر . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... (١٤) ﴾ [الحجرات]

أى أنهم يؤدون أمور الإسلام الظاهرية بينما قلوبهم لم يدخلها الإيمان .

ويعرفنا الحق سبحانه بالجزاء الذى ينتظر هؤلاء المتخلفين من الأعراب فيقول : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وعرفنا من قبل أن وصف العذاب فى القرآن إما أن يكون أليماً ، وإما أن يكون مهيناً ، وإما أن يكون عظيماً ، وإما أن يكون مقيماً .

وأراد الحق سبحانه أن يعطى رخصة للذين لا يقدرون على القتال ولهم العذر فى أن يتخلفوا عنه ؛ فقال :

﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ
مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ﴾